شيطان بنتؤور

المحادثة السابعة

قال الهدهد فلما كان أصيل الغد خرجت الى الموعد كالعادة وقد عيل صبرى لبخل النسر على بالكلام وخبطه فى ضرب المواعيد فدخلت منفيس ضالا حيران لاأهتدى السبيل ولا أجد من دليل فجعلت أمر بالدور العالية وأطيف بالقصور الشاهقة لعلى أجد ريح النسر على ذلك القصر حتى أتعبنى طلابه وأغضبنى احتجابه ونقضى الى اصطحابه فعمدت اشباك مفتوح فى طبقة من دار فدخلتها منه وقررت فى رف هناك ثم نظرت تحتى فرأيت غلمانا بضعة منتثرين فى المكان متقابلين على الارض فيه وقد جلسوا أرضا واقبلوا برؤوسهم على ركبهم وبين أيديهم شيء كثير من ورق البردى وسائر ادوات الكتابة وهم فى العمل، وكان الصدر لرجل يؤخذ من سنه وهيئته واتخاذ منصة للجلوس واخرى للاوراق، انه رئيس هذه العصبة والمسيطر على هؤلاء الكتبة فخيل لى عند مارأيتهم على هذا الحال اننى فى بعض الدوائر المصرية القديمة حيث الباشكاتب يتصدر والعمال بجانبه يعرضون عليه الحرف والسطر والصحيفة

(قال) وكان دونى غلامان متدانيان فى الجلوس وكانا يتحادثان همسا فاسترقت السمع فسمعت احدهما يقول للآخر نحن نكتب غير مأجورين ونتعب وهذا الرئيس ياخذ المرتب فاجابه الثانى وليته يتركنا وشأننا وما نحن فيه من حال تحنى الظهور وتدمى الركب وتقرح الجفون فقد شكانى من أيام الى والدى وزعم انى بطىء الفهم ثقيل الحركة قال وهل صدقه أبوك قال تردد ثم نقل الحديث الى أمى فلم تصدقه ..... وحلفت بنعمة الآلهة أننى أحضر ذهنا وأصح فهما منه ومن أولاده الثلاثة

قال انه صديق لابيك ولوالدى ولولا هذه الصداقة لما اتخذنا تلميذين له فليتنا لم نكن ولم ندخل هذا القبر على قيد الحياة قال لكن الناس اجماع على أن هذه الصناعة التى نمارسها هى سلم الارتقاء فى خدمة الامراء والاغنياء وان كثيرا من الكتبة وصلوا فيها الى الجاه العظيم وحصلوا معها على المال الجسيم

وقد حدثني أبي وأنت تعرف مكانته في العلم و الفضل انه رغب في الاتصال بالامير (أوني) أحد أنجال الملك وكان في ديوان حجابه عمل يحتاج الى عامل فطلبه أبي بسفارة صديقه هذا الذي سئمنا من رؤيته وهو كما تعلم المأمور المتصرف في ديوان أمواله فعرض اسمه على الأمير في جملة ما عرض من الاسماء فلم يقع اختياره الا على واحد من الكتبة لكن أبي لا يبرىء هذا الشيطان ويتهمه بكونه يظهر مالا يبطن كدأب جماعة الكتبة المتفقين على أن يأخذ بعضهم بيد بعض في الأمر كله وهذا هو سبب قوتهم وسر نجاحهم .

قال الهدهد فعجبت لمصرام العجائب كيف صبرت آلافا من السنين على حال واحد مع هؤلاء الكتبة فكانوا على عهد الفراعنة هم أنفسهم وقت دخول العرب الى زمن المماليك الى أيام محمد علي الى حكم اسماعيل الى عصر الاحتلال وفيه ظهرت الشهادة الابتدائية وأختها الثانوية فمات بها الجهل وماتت الكتابة القديمة لكن هلك كثير من طلبة الرزق في الحكومة بين طلبة العلم عن غير شهادة .... وحرت في نفسي فلم أدر أأبكي ذلك اليسر مع الجهل أم أبكي من هذا العسر مع العقل ؟

وكنت قد استبشرت عندما سمعت اسم الامير أوني وعرفت من حديث الفلاحين أن الديوان له وهؤلاء الكتبة أتباع له وأملت أني أستدل على القصر بأحدهم فتحقق أملي على الفور اذ لم يلبث الرئيس ان نهض فالتفت الى من يليه من الغلمان وأخبره أنه ذاهب الى القصر لمقابلة الامير في بعض الشؤون ثم خرج من الباب فسبقته من النافذة وأنا أستغرب هذا الاتفاق وأتعجب من المصادفات كيف تتساق فما زال في سيره وانا في أثره حتى احتوانا طريق ضيق جمعتني العناية فيه بالنسر وكان يمشي متمهلا كثير التلفت فلم امالك عن الوقوع على كتفه فلما صرت في عشي المألوف منه التفت متبسما مسرورا وقال لقد خفنا على الهدهد الضلال .

قلت ما زلت يامولاي تضله وما برحت العناية تدله ثم حدثته حديثي وما وعيت من محاورة الغلامين فاستضحك ثم قال انظر كيف يستفيد الغريب من الضلال أضعاف الفائدة من الاستدلال، قلت لقد أوشكت يامولاي أن أضل حلما فيكم وفي شؤونكم الغريبة وأحوالكم العجيبة لانكم تهزلون وتجدون وتصغرون وتعظمون

وتجهلون وتعقلون كيف يكون مثل ذلك الكاتب على ديوان أموال الأمير وفى المملكة من يصلح لهذا العمل وأمثاله من طلبة العلم بين شبان البلاد والاكفاء قال وأى كبير لا يصغر أحيانا يابنى أن للامة الكبيرة كما للفرد الكبير زلات وجهالات تدل على أن الكمال الكامل للآلهة وحدهم فاذا دخلت على قوم ديارهم فلا تحكم على أشيائهم متفرقة واحكم عليها مجتمعة ثم أفضى بنا المسير الى ميدان وسيع فيه قصر رفيع مشى النسر نحوه فسألته لعلها دار الأمير يامولاى قال نعم وليست ما ترى الا قصرا من نحو مائة قصر يحيط بها سور واحد ويأوى اليها الملك ونساؤه وأولاده وأرباب خدمته كل بقدر درجته فى القرابة وحسب منزلته فى الصحبة وموقفه فى الخدمة

قال الهدهد فاستغربت الامر وقلت للنسر ما ترك الأول للآخر يامولاى فليست يلذ بالشيء الذى يذكر فى جنب هذه الابنية الفرعونية والمساكن الرمسيسية قال ألم أحرمك أن تقيس وأن تذكر أحد الملوك برمسيس

قلت لا أعود لها يامولاى ثم دخلنا القصر فجعلنا نلج بابا ونستقبل آخر ونخرج من ساحة وندخل فى ساحة ونطوى دهليزا الى دهليز بين حراس جملة وجند عدة وخدام لا تنقضى لهم جيئة ولا ذهاب حتى ضمتنا حديقة من أبدع ما غرست الراحات وأكرم ما أخرجت الارض من النبات فاجتزناها الى قصر له بهو يتمشى فيه الامير الشاب بين اثنين من الاصحاب فحين وقع نظره على الاستاذ تهلل واهتز وانثنى الى ما وراء البهو ليستقبلنا وسار الغلمان بين يدى النسر حتى أدخلوه على الامير فالتقاه أحسن التقاء وأعلى محلة وأجلسه بجانبه وأومأ الى صاحبيه فجلسا دونه فى الحضرة ثم خاطبه والابتسام ملء فمه فقال لعل هذا هو الهدهد السحرى الذى لا يفارق الاستاذ فى هذه الايام قال هو بعينه فمن حدثك حديثه يامولاى

قال قداسة هوروس (من ألقاب الفراعنة) أو بلغ حديث الهدهد الى الباب العالى (من ألقاب الفراعنة) قال وهل يخفى على جلالته خافية فى الارض أو فى السماء وهو المضطلع وحده بالملك فى الاولى وشريك الآلهة فى ملك الثانية قال كذاك هو يامولاى لكنه لم يسألنى عن أمر هذا الصاحب الجديد قال لعل شاغلا شغله قال هذا الهدهد يامولاى خلق لمجالس الملوك والامراء لانه أصم لا يملك السمع أخرس لا يملك الخطاب اللهم الا أن يتنزل فيه من روح الملك يوم يعرض عليه

فينطق بما يدهش ذا القصرين (من ألقاب الفراعنة) لان سره اذا حل فى نبات مشى أو فى طير نطق فلا يجدن مولاى من بأس فى تشرفه الآن بالحضرة لانه يكتم الاخبار ولا يذيع الاسرار .

قال الكريم يصحب الكريم أيها الاستاذ ولو حملت معك البيغاء وهى الغافلة الواشية من بين الطير لاً تمناها كما تأتمنك والآن لعلك تدعونى الى الدرس قال ان أذنت يامولاى فتبسم الامير ثم قال الا ترانى كبرت عن الدرس أيها الاستاذ قال ما علم عن بشر انه بر عن التعلم يا مولاى ولو سألت جلالة الملك وهو الموحى الى من فى الارض الموحى اليه من السماء لاجاب ان الكمال ميسور بلوغه الا فى العلم قال فما باله عفى كثيراً من اخوتى الاصغرين سنا من الدرس قال وما يدريك أن يستنجيك ويرجو ان يستثمر غرس عنايته بك فقد سمعته فى بعض الايام يقول لمن حوله إن (أونى) لعلى بيان و ان البيان لخير مظاهر الملوك والامراء يسترق لهم الخواطر ويسعى لهم بالقلوب قال لو أنهم يختصرون معى من الدرس فلا يكلفوننى منها ما يمجه ذوقى وتأباه طباعي مثل الرماية وركوب الخيل ومطاردة السباع فى الصحارى والقفار لاقبلت على سائرها اقبال الحيارى المستفهمين على الهياكل ينتظرون جواب الآلهة فى معضلات المسائل قال إن من الناس يامولاى من تلجئة منزلته فى هذا العالم الى ممارسة ما يكره وركوب مالا يود وأنت ابن الملك وناهيك بها من نسبة يتلاقى فيها أبوك والشمس وأنها لتجعلك حيث لا يكون سائر الناس فانت من معك بين أصحاب موالين لاتأمنهم أن ينقلبوا أعداء مقاتلين بل أنت من قصرك هذا فى شبه حصن تحرسه الآن مهابتك ولا يحميه عند الكريهة الا ثباتك وشجاعتك واذا خرج فتيان المملكة الى قتال المتوحشة بني الخراب (كنية الامم الخارجين من حكم الفراعنة) ومنعهم من الغارة على البلاد نصرة للآلهة ومواطنهم المقدسة خرجت أنت ناصرا للالهة زائدا عن ملك أبيك المؤيد بالشمس فانت اذا من جنود الصف الاول الذين لا غنى لهم عن قلوب تقسيها ملاقاة الاسود وجسوم ينشطها ركوب الخيل وأحداق يحددها مزاولة الرماية وسواعد يقويها الضراب بالسيوف واعلم يامولاى ان هذه الدنيا لمن غلب وان الغلبة فيها للقوة وأن الامم لا تحفظ الاستقلال موجودا ولا تسترده مفقودا الا بالقوة فيتعين اذا على كل انسان يحب بلاده

محبة حقيقية ويريد بقاءها ممتنعة الجوانب عزيزة المنال على الاجانب أن يثبت نفسه بالفضيلة ويقوى بدنه بقدر الامكان ويتعلم فنون الحرب فى السلم وأن يشب على ذلك ويسوم أولاده أن يشبوا على مثله حتى اذا دهم البلاد يوم عصيب استدفعته بشبان من ابنائها وشيب

ان الأسد اذا أقعده الهرم ناشته الذئاب كاحدى الرمم ، وان الباز اذا خفضت رأسه الدهور توثب على منسره العصفور ، وهكذا الأمة لا تغنى عنها الفضائل جمة إذا هى لم تجعل الشجاعة رأسها ولم تستحضر فى الحرب والسلم قوتها وبأسها

نشأ أبوك الملك يا مولاى ونشأنا معه نحن رفاق صباه فى التخشن والتقشف وأنواع الرياضة البدنية من صيد ومطاردة وقتال صورى ولم يكن جدك الملك سيئ يقدمه على أحدنا فى المعاملة أو يفرق بين أحد منا فى المجاملة بالرغم من مختلف الانساب ومتفاوت الاحساب فلم يبلغ الواحد منا الخامسة عشرة من عمره الا وهو كالشبل النوبى لا يقر له قرار فى الفيافى والقفار وقد أوتى والدك الملك وهو يحبو الى العشرين فاحتكم بكف كمخلب الأسد وقلب كقلبه أو أشد وكنا نحن المرشحين لمشاركته فى سياسة الأمور وأعوانه الطبيعيين على مداورة الشؤون فوجد عندنا سواعد قوية البأس وعزائم شديدة المراس وعقولا صحيحة سليمة فى جسوم قوية قويمة ولا أكتمك يا مولاى انى كنت كثير الشكوى مثلك أضيق ذرعا بتلك النقل وأتعب بتلك المشاق واشتهى جلسة على شاطىء النيل فى ساعة الغروب لكى آخذ من محاسن الأكوان وأسرارها وأشهد معترك ظلماتها وأنوارها وانظر الى الماء اذا قعد والى النبات اذا سجد والى الطير اذا هجد واسمع ذلك الخرير تتاليه باصواتها النواعير وقد انفتح للكائنات هيكل من خاطرى فجمعها فهى تمجد الالهة فيه وأنا أمجدهم معها الا أن والدى كانت تقص على قصص الوحوش من الشعوب الذين أغاروا على مصر فى الزمن الأول وتمثلهم لى فى أفظع الصور وتصفهم باقبح الاوصاف فبينما هم الذئاب العادية اذا هم الآسود الضارية اذا هم الشياطين العاصية فروا من الحامية وردوا الى الدنيا ثانية .

وكانت تقول إنهم لا يفرون الا من السلاح ولا يعصم منهم الا السواعد العبلة الصحاح فكنت اذا سمعت ذلك منها قصرت الشكوى وصبرت على البلوى حتى تمت

لجسمى التربية فانقطعت لتهذيب نفسى قال الأمير ومن لى أيها الاستاذ بام كالتى ذكرت إن والدتى أول العاذلات لى على ما أنا فيه من اجهاد نفسى وأتعاب جسمى وهى تزعم انه ما دام الملك من بعد أبى سيصير لأخى الاكبر فلا حاجة بى الى مثل هذا الكد والكدح قال ويح الأمهات طالما جنين فهدت الرحمة عذرهن

انت يامولاى ان لم تكن وارث الملك فانك وارث الملك وهو على فضائل لابدلك أن تكون عليها لأن المسئولية فى هذا العالم بقدر منزلة الانسان فيه ومن أرفع منزلة من ابن رمسيس على أن محبة أخيك لك وثقته فيك يوم ينتقل اليه الملك تكونان بقدر قسطك من المزايا ونصيبك من الفضائل فان كانا موفورين وكان أخوك برابك مقبلا عليك كنت ساعده فى الملك ومساعده فى الحكم فان فاتك من هذا لم يفتك اجماع الناس على تعظيم نسبك وتكريم حسبك قال أتظن أيها الأستاذ أن يخرج منا معشر أبناء رمسيس ونحن خمسون أو تزيد من يشبه أباه أو يخطو فى سبل الفخار خطاه قال مثل هذا السؤال يامولاى يلقيه أبناء الملوك ولا يبالون لكن الحرج كل الحرج على من يسألون قال نحن الآن صديقان نتحادث ولا نختلف على أننى أرجو أن تكونوا من بعده كماء الورد بعد الورد يحفظ منه شيئا ومعذور أن تفوته أشياء

ان السعادة يامولاى لم تكمل لملك كما كملت لأبيك فى حياته فهل نكلفها أن تبقى عليه بعد مماته ولئن صح ما أعتقد من أن الانسان قد يحيى فى نسله وينبعث فى فرعه كما يبعث من أصله فربما حيى لدى أحدكم ما يموت من فضله لكن من لكم يومئذ بالملك الجسيم يظهر ذلك الفضل للعباد وبالحظ العظيم يبشره فى البلاد

قال صدقت أيها الأستاذ فهل تدلنى على ركن من السعادة الوذ اليه فاسلو ما لا يدرك من محاكاة أبى فى بلوغ السعادة الكاملة. قال عليك بالشهرة يابنى فانها محسودة الملوك والامراء وأفضل ما تنال بالعلم وأثبت ما تكون به فاطلبه وجالس أصحابه وأجهد وسعك أن يقال عنك ابن نفسه ثم ابن رمسيس فهذه هى اللذة الحقيقية والسعادة التى لا يعدلها فى هذا العالم الا الصحة أبقتها الآلهة عليك

قال الهدهد وبينما أنا أنتظر أن يدعو الأمير الى الدرس ويأخذ فى القائه عليه إذا هو قد تثاءب كعادته ثم التفت الى مملوء الجفنين من النعاس

فقال اذا جاء الليل ذهبت الشياطين فألقى أصيل الغد على باب القصر فانتبهت من حلمى فاذا أنا فى عشى بحلوان.